ملحمة السراب

- ١ -

السراب في الصحراء

السـرابُ الخـؤون والـصـحـراءُ
والحيـارى المشـردون الـظمـاءُ
ولـيـالٍ فـي إثـرهـن لـيـالٍ
سـنـة أقـفـرَت وأخـرى خـلاءُ
قـلّ زادي بـهـا وشـح المـاءُ
وتـولـى الـرفـاق والـخـلصـاءُ
كيف للنـازح الحبيبِ ارتحـالي
وجَـنـاحـاي السـقم والـبـرحـاءُ
وجـراحي المستنـزفـات الـدوامي
وخـطاي الـمـقـيـدات الـبـطاءُ
ادركي زورقي فقد عبث اليـ ـم به والعواصف الهوجاءُ
والعبابُ العريضُ والأفقُ المو حشُ والـلانهاية الخـرسـاءُ
أفق لا يحد للعين قد ضا قفأمسى والسجن هذا الفضاءُ
سهرت ترقب الصباحَ وعين الـ ـنجم كلّت وما بها إغفاءُ
عجبي من ترقبي ما الذي أر جو ولما يعـدْ لقلبي رجاء
وأنـا مـرهـفُ المـسـامـع فيـه
لي إلى كـل طـارقٍ إصغـاءُ . . .

* * *

التقينا كما التقى بعد تطوا فٍ على القفر في السرى انضاءُ
قطعوا شوطَهم على الدم والشو كِ وراحوا على اللهيب وجاؤ وا
في ذراعي أو ذراعيك أمن وسـلامٌ ورحمـةٌ ونـَجـاءُ
وعلى صدرك المعذب أو صد ريَ حصنٌ وعصمةٌ واحتماءُ

كم أناديك في التنائي فترتـ ـد بلا مغنم لِيَ الا صداء
وأنـاديك في دمـائي فتنسا ب على حسرةٍ لدي الدماءُ
وأناديك في التداني وما أطـ ـمع إلا أن يستجاب النداءُ
باسمك العذب إنه أجملُ الأسـ ـماء مهما تعـددت أسماءُ
لفظة لاتبين تنـطلق الأقد ارُ عن قوسها ويرمي القضاءُ

* * *

وهي بين الشفاهِ نايٌ وتغريـ ـدٌ وطيـرٌ وروضـةٌ غنَّـاءُ
وهي في الطرس قصةٌ تذكر الأحـ ـبابُ فيها وتحشد الأنباءُ
صـدفةٌ ثم وقفـةٌ فـاتفـاقٌ فـاشتيـاقٌ فمـوعـد فلقـاءُ
فقليلٌ من السعادةِ لا يكـ ـمل فيه ولا يطولُ الهناءُ
فحنينٌ فلوعـةٌ فـاحتـراقٌ فجحيمٌ وقـودُه الشهـداءُ
مـا بقـائي وأجمـل العمـر ولّى
وانتـظاري حتى يحين الـشتـاءُ
يـطلع الفجرُ مـرهقاً شـاحب النـو
ر عـليـه الـكـلالُ والإعـيـاءُ
وبنفسي دب الـمسـاءُ وحـل الـ
ـليـل من قبـل أن يحين المسـاءُ

* * *

زرتني كالربيع في موكب الزهـ ـر لـه روعـةٌ وفيـهِ رواءُ
ولـك الـوجـه أومض الحسنُ فيـه
والتقى السحـرُ عنـده والـذكـاءُ
وشحوبٌ كظل خمر وللند مِان تجلو شحوبُها الصهباءُ
ولك الجيد أتلعا أودع الصا نع فيه من قدرة ما يشاءُ
قدَّ من مرمرٍ وشعشعه الفجـ ـرُ بوردٍ وصب فيه الضياءُ
وأنا الطائر الذي تصطبي نفـ ـسي السماوات والذرى الشماءُ
راشني صائدٌ رماني فأدما ني وولّى الجاني وعاش الداءُ
مرحباً بالهوى الكبير، فإن يـ ـبقَ وإن تسلمي يطبْ لي البقاءُ
فهو القمةُ التي تهزمُ المو تَ ولا يرتقي إليها الفناءُ

مرّ يومي كأمسِه مسرحاً تعـ ـرض فيه الحياةُ والأحياءُ
آدم كـالقديم قلباً وتفكيـ ـراً ولكن تبـدل الأزيـاءُ
لم يحـلْ طـبعـه ولا ذات يـوم
لـبـست غـيـر نـفـسـهـا حـواءُ
والنضارُ المعبود قُدْسٌ وقربا نٌ وربٌ والشهرةُ الجوقاءُ
والحـطامُ الفـاني عليـه اقتتـالٌ
والأمـانـي بـريـقُـهـا إغـراءُ
وسـفـيـنٌ تـمـر أثـر سـفـيـنٍ
والـريـاحُ الـلذات والأهـواءُ
والـغيـوبُ الـمحـجبـاتُ رحـابٌ
تعبت في رمـوزهـا الـحكـمـاءُ
عنـدهـا المـرفأ المؤمـل والشط
المـرجّى والصخـرة الـصمـاءُ..
مرّ يومي كـأمسه وأتى لـ ـيلٌ بهيج تزف فيه السماءُ
قـد جلت فيه عـرسَها، كـل نجم
قـدحٌ يستحم فـيـه الـضـيـاءُ
لم تزل تسكب السلاف وللأقـ ـداحِ فيها تجددٌ وامتلاءُ
لم تزل.. حتى هوّم الحانُ نعسا ن وأغفى البساطُ والندماءُ
غير نجم في جانب الليل يقظا ن، له روعة بهـا وجلاءُ
ذاك نجمُ الحبيب مني له الشو ق ومنه الوميضُ والإيماءُ
كم أغنّيهِ بالحنين كما غـ ـنت على فرعِ غصنها الورقاءُ
وذراعـيَّ في انـتـظارٍ، وصـدري
فيـه بـالضيف فـرحـةٌ واحتفـاءُ
مـوقـداً للغـريـب نـار ضـلوعي
فعسى للغريب فيها اهتـداءُ...

* * *

لمَ خليتني وباعدت مسرا ك ومالي إلى ذراكَ ارتقاءُ
بـالذي فيـك من سنـا لا تـدعني
فـيـم هـذا الـمـطال والإبـطاءُ

مـا تـراني وقـد ذهبت بحـظي
اخـطأني سـن بعـدك الـنعـمـاءُ
وانتهى بعدك الجميلُ فلا فضـ ـلٌ لمسدٍّ ولا يدٌ بيضـاءُ
ومشى الحسن في ركابك والإحـ ـسان طراً والغرة السمحاءُ
حسنـات كانت يـد الدهـر عنـدي
فـانـطوت بـانـطوائـك الآلاءُ

- ٢ -
السراب على البحر

لا القـوم راحـوا بـأخبـارٍ ولا جاؤوا
ولا لـقلبـك عـن لـيـلاك أنبـاءُ،
جفـا الـربيـعُ لـيـالينـا وغـادرهـا
وأقفـر الـروضُ لا ظـل ولا مـاءُ
يـا شافي الـداء قد أودى بي الـداءُ
أمـا لـذا الـظمـأ الـقتـال إرواءُ
ولا لـطائـر قـلبٍ أن يـقـر ولا
لمـركب فـزع فـي الشط إرسـاءُ!
عنـدي سماء شتـاءٍ غير ممـطرةٍ
سـوداء في جنبـات النفسِ جـرداءُ
خـرسـاء آونـة هـوجـاء آونـة
وليس تخـدع ظني وهي خـرسـاءُ
وكيف تخـدعني البيـداءُ غـافيـة
ولـلسـوافي عـلى البيـداء إغـفـاء
أأنتِ نـاديتِ أم صـوتٌ يخيـل لي
فلي إليـكِ بـاذن الـوهـم إصغـاءُ
لبيـكِ لو عنـد روحي ما تـطيـر بـه
وكيف ينهضُ بـالمجـروحِ إعيـاءُ